المقدمة

كانت أول صلتي بابن الزيات قبل أكثر من نصف قرن، حين كنت طالباً في الثانوية العامة، وكان لنا مدرس أديب قارئ متذوق على خلق عال، وكنت أحظى منه بعناية متميزة. فقد كان يرعى النابهين ويزودهم بكتب ثقافية وأدبية ويتابع قراءاتهم، ذلك هو الأستاذ محمد حسن العضاض، وقد علمت أنه توفي شاباً رحمه الله وأحسن إليه، وكان قد صدر ديوانه ابن الزيات حديثاً وذلك في حدود سنة خمسين وتسعمائة وألف، وقد حدثنا الأستاذ عن ابن الزيات ودرَّسنا قصيدته الرائعة في رثاء زوجته، وهي قصيدة من أروع ما قيل في رثاء الزوجات، وفيها صورة رائعة مؤثرة للطفل الذي فقد أمَّهُ، فهو لاهٍ في النهار، ولكنه إذا جنَّه الليل تشوق إلى صدر أمه وحنانها ومناغاتها، فيبكي فقدها وشوقه إليها، والقصيدة نونية تبدأ بقوله:

ألا من رأى الطفلَ المفارقَ أُمَّهِ ... بُعيدَ الكرى عيناه تَبْتَدِران

رأى كلَّ أمٍّ وابنَها غيرَ أُمِّه ... يبيتان تحتَ الليلِ ينْتَجِيانِ

وباتَ وحيداً في الفراشِ تُجِنُّهُ ... بلابِلُ قلبٍ دائمِ الخفقانِ

وقد كان لهذه القصيدة أثر عميق في نفسي فحفظتها، وما زلت بعد تطاول السنين أحفظها وأرددها. ومنذ ذلك الحين رسخت صورة ابن الزيات في ذهني مرتبطة بتنُّوره الذي صنعه لخصومه، ثم عُذِّب فيه، وكان فيه حتفه.

وحين حققت كتاب المحن لأبي العرب التميمي سنة ١٩٨٣م وما فيه من بلايا وأحداث نزلت بالخلفاء والعلماء من حبس وعذاب وقتل، فأردت أن أكمل ما وقف عنده أبوالعرب وما فاته، فأكتب عن محن الشعراء والكتاب، فرحت أجمع وأستقصي أخبار هؤلاء الأدباء الذين تعرضوا للحبس والمصادرة والتشريد، والقتل، فتجمعت لدى مادة كبيرة سترى النور يوماً بعون الله وتوفيقه، وكان ابن الزيات من جملة أولئك الأدباء والشعراء، وكنت بين حين وآخر أحتاج إلى الرجوع إلى ديوان ابن الزيات، فكان الديوان نادراً غير متيسر إلاَّ لدى القلة من علمائنا الكبار الذين

ازدهروا في منتصف القرن الماضي، فقد مضى على صدور الديوان بتحقيق الأستاذ الدكتور جميل سعيد رحمه الله وطيب الله ثراه، نصف قرن أو يزيد، وقد خلت منه المكتبات، بالإضافة إلى أني وجدت في الديوان المطبوع نقصاً، فقد تجمعت لدى أشعار لم يحوها الديوان، وهكذا ولهذه الأسباب مجتمعة فقد وجدتني مندفعاً إلى دراسة ابن الزيات في سيرته وأدبه ومحنته وتحقيق ديوانه، فسعيت إلى الحصول على الأصل المخطوط الموجود في دار الكتب المصرية، وبعد جهد جهيد، ومراسلات لم تلقَ أذناً صاغية من مسؤولي معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية، وبجهد من الأستاذ المهندس ياسين طه العيساوي وبوساطة بعض الأساتذة المصريين تم الحصول على صورة من مخطوطة الديوان، فالشكر كل الشكر لكل من بذل جهداً علمياً ويسره للباحثين، وفي رأيي أن أي تحقيق للكتب أو إعادة نشرها دون الرجوع إلى أصل مخطوط عمل لا قيمة له، وقد كثرت في هذه الأيام إصدارات الكتب والدواوين التي تعتمد على المطبوعات دون إضافة أو الرجوع إلى الأصول المعتمدة، وهذا النشريات هي في حقيقتها سرقة لجهد الآخرين وسطو على أعمالهم.

لقد حظي ابن الزيات باهتمام الباحثين، فقد صدرت عنه بعض الدراسات، كان أولها دراسة المرحوم محمد كرد علي في كتابه أمراء البيان الذي صدر عام ١٩٧٣، ثم دراسة الأستاذ محمود الهجرسي التي صدرت في سلسلة أعلام العرب بعنوان محمد بن عبدالملك الزيات صاحب التنور، ثم صدرت دراسة جامعية لفايز علم الدين القيس بعنوان محمد بن عبدالملك الزيات سنة ١٩٨٣م. وكل هذه الدراسات جهود نافعة ولها فضل السبق، وتختلف دراستنا هذه عمّا سبقها في منهجها وغايتها، وما زالت حياة ابن الزيات وشعره وأدبه بحاجة إلى المزيد من الجهود والدراسات الأدبية والعلمية، وما زالت كذلك شخصيات الشعراء الكتاب من أمثال ابن الزيات بحاجة إلى الدرس العلمي والأدبي.

لقد عاش ابن الزيات في زمن يشبه زماننا هذا من اضطراب الحياة السياسية والاجتماعية وسيطرة الأيدي الأجنبية الطامعة على الخلافة المتمثلة بالقواد الأتراك،

وكانت فريسة لأطماع الجند وضعف الخلفاء ونزواتهم ومكائد أمهات الأولاد من الجواري والإماء، وأراد ابن الزيات أن يعيد إلى الدولة سلطتها وهيبتها، فوفق حيناً من الدهر، ثم تكالبت عليه مكائد الخصوم ومصالح الطامعين فكان مصيره السجن والمصادرة والعذاب الذي أودى بحياته.

وبعد فأرجو أن يكون في عملي هذا درس وعبرة، ولبنة صالحة تضاف إلى صرح الأدب العربي الذي نتلمَّس فيه حضارتنا وأصالتنا وروعة أدبنا الزاهي الثري، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

والحمد لله أولاً وآخراً،

يحيى بن وهيب الجبوري

٢المحرم ١٤٢٣هـ

١٦ آذار ٢٠٠٢